الفيزياء ووجود الخالق

مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين

تأليف الأستاذ الدكتور

جعفر شيخ إدريس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ح **مجلة البيان ١٤٢٢هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إدريس، جعفر شيخ

الفيزياء ووجود الخالق: مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين - الرياض

١٩١ ص؛ ١٧× ٢٤

ردمك: X - ٧٧٠ - ٣٩ - ٩٩٦٠

١ - الإسلام والفيزياء . ٢ - الخلق

أ - العنوان

ديوي ٢١٤,٥٣ ٢٢/٣٩٤٤

رقم الإيداع ٢٢/٣٩٤٤

ردمك X - ٧٧٠ - ٣٩ - ٩٩٦٠

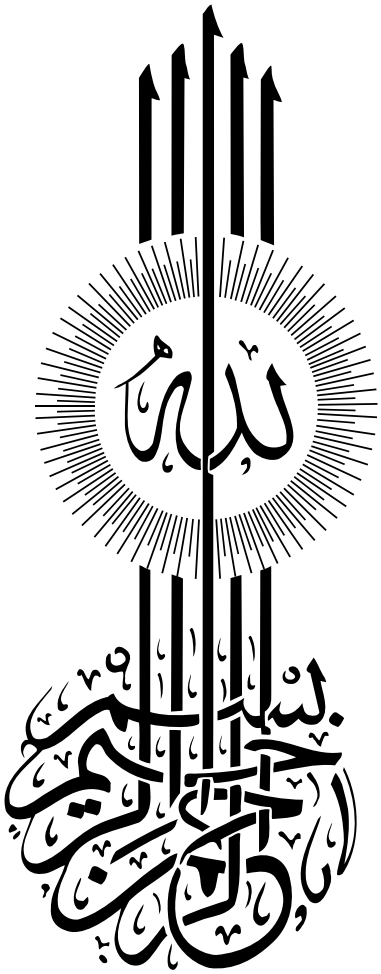
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

كان هذا الكتاب قد طبع أولاً بالولايات المتحدة، وها هي مجلة البيان تتولى مشكورة مأجورة طباعته ونشره في العالم العربي، راجية أن يلقى من القبول بين طلاب العلم وأهل الفكر هنا مثل أو كثر مما لاقى هنالك، وأن يساعد على وضع لبنة في بناء جهودنا الفكرية التي نعالج بها قضايانا العصرية.

وقد كنت ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى أسماء عدد من الإخوة الذين ساعدوا بطرق مختلفة على إخراج الكتاب، وكنت قد خصصت بالشكر منهم الأخ الصديق والفيزيائي النابه الأستاذ الدكتور محجوب عبيد الذي ـ شاء الله تعالى ـ أن لا نتشرف بشهوده لهذه الطبعة. لكننا نسأله ـ سبحانه ـ يبدله داراً خيراً من دارنا، وأن يكون بين أهل وأصدقاء وإخوة خير منا.

المؤلف

بين يدي الكتاب

باسم الله الذي بهداه تتبين الحجج والآيات، وبحكمته تكون مخلوقاته دلائل عليه بينات .

والحمد الله الذي جعل الإيمان به فطرة تبده العقول، وحقائق طبيعية لا ينكر دلالتها إلا كل معاند جحود ، وكلمات مباركات يتلوها على الناس كل مصطفى رسول .

والصلاة السلام على خاتم المرسلين، المبعوث بالقرآن والسنَّة هداية للعالمين، تزداد نصوعاً بمرِّ الزمان، وتدبُّر أولي الأفهام، وتراكم علوم الإنسان.

﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [**فصلت** : ٥٣] .

وبعد، فهذا جهد من مقلٍّ يحاول أن يشارك بنصيب في إعلاء كلمة الحق بالبراهين العقلية والأدلة الحسية سائلاً الله ـ تعالى ـ أن يجعله عملاً مباركاً خالصاً، وأن يزيد به قارئه من المؤمنين إيماناً، ويهدي به إلى الإيمان من لا يزال له مجانباً، والحمد الله أولاً و آخراً .

شكر وتقدير

أعانني على هذا البحث عدد من الإخوة، إما بآراهم أو مقترحاتهم أو تصويباتهم أو تشجيعهم، كان منهم العلاَّمة الدكتور بكر أبو زيد، والأستاذ هاشم الإمام اللذين تفضلا بقراءة أجزاء كبيرة منه. وأما الأستاذ الدكتور محجوب عبيد أستاذ الفيزياء بجامعة الخرطوم ثم جامعة الملك سعود، فقد قرأ البحث عندما كان مقالاً قصيراً باللغة بالإنجليزية، ثم قرأه من أوله إلى آخره في صورته هذه العربية النهائية .

قرأه قراءة دقيقة، وكتب عنه تقريراً نقدياً ضافياً استفدت منه كثيراً، وأشرت أثناء البحث إلى بعض تعليقاته .

فله ولأولئك الإخوة خالص الشكر والتقدير .

فإن يكن في البحث من غُنم فهم شركاء فيه، وأما غُرمه فعلى من كتبه، والله المسؤول أن يعفو عنه ويغفر له، وأن يجزي كل من أعان عليه خير الجزاء .

أ . د . جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

واشنطن ـ الولايات المتحدة الأمريكية

مقدمة الكتاب

تبحث الفيزياء في طبيعة المادة التي يتكون منها كوننا هذا: ما مكوناتها النهائية؟ وما العلاقة بين الأشياء المادية ما كان منها متناهياً في الصغر أو كان متناهياً في العظم؟ تبحث في القوانين التي تحكم تصرفات هذه المادة، تصرفاتها كما هي الآن وتصرفاتها عبر تاريخها.

يؤدي هذا البحث إلى اكتشاف حقائق طبيعية تدل عليها المشاهدة المباشرة، أو يؤدي إليها الدليل العقلي مما هو مشاهد. لكن لا الفيزياء ولا غيرها من العلوم الطبيعية الأخرى هي ـ كما يظن كثير من الناس ـ منظومة من تلك الحقائق القطعية، وإنما هي أيضاً نظريات يؤتى بها لتفسير تلك الحقائق، وهي أيضاً وقائع تفترض صحتها من غير برهان قطعي. لكن الحقائق القطعية هي الحكم النهائي على ما هو حق وما هو باطل في مجال العلوم الطبيعية. فالنظريات والقوانين مهما كانت فائدتها التفسيرية تعد باطلة وتلقى جانباً إذا قام دليل من حقائق الطبيعة على بطلانها.

لكن عالم الطبيعة لا يفعل هذا كله في فراغ أو في تجرد كامل من كل تصورات سابقة، بل إنه ليمارس عمله في نطاق تصور عام للوجود. هذا التصور العام الذي يسمَّى أحياناً بالفلسفة هو الذي يحدد العلماء على ضوئه ما يعدُّونه حقيقة وما لا يعدُّونه، ونوع التفسير الذي يعدُّونه تفسيراً علمياً، وما النظريات التي تساعد على مثل هذا التفسير.

والتصور العام الشائع الآن بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية هو مع الأسف تصور مادي إلحادي؛ يفترض أنه لا واقع إلا الواقع المادي، وأن الحقائق إنما هي الحقائق المادية (وإن كان المعنى الذي يعطونه للمادة في تغير مستمر بحسب

الكشوف العلمية)، وأن الكون مكتف بنفسه غني عن أي شيء خارجي، وأن التفسير العلمي ـ لهذا ـ يجب أن يكون تفسيراً في حدود هذا الكون المشهود.

لكن شيوع تصور ما في عصر من العصور لا يعني أنه هو الحق، إن التصور الصحيح للكون هو تصور يعدُّ الكون مخلوقاً لله، وبهذا ينفي عنه صفة الاستغناء، ويزيل التقابل ـ الناتج عن التصور الإلحادي ـ بين التفسير العلمي والتفسير الديني، وهذا هو تصورنا نحن المسلمين. ولذلك فنحن نقبل من العلم الطبيعي جانبه الذي يقرر الحقائق بالمشاهدة أو بالأدلة العقلية القطعية، ونقبل نظرياته التي يلغب على الظن صحتها، بل ونقبل تفسيراته للظواهر الكونية بظواهر أخرى، لكننا لا نعد هذا تفسيراً نهائياً لها، ولا نغلق الباب أمام تفسيرات لظواهر مادية بأسباب غير مادية كما هو الحال في الاستسقاء ونزول المطر، أو الرقى والشفاء، أو العبادة والراحة النفسية، وهذا هو المقصود بالدعوة إلى (إسلامية) العلوم، لكن هذا موضوع آخر أرجو أن نعالجه في بحث آخر.

ولما كانت الفيزياء تبحث في طبيعة الكون بالمعنى الذي ذكرته، وكان الدين قائماً على أن الكون مخلوق لله؛ فقد كانت الفيزياء دائماً ذات صلة بقضية وجود الخالق وصفاته. لست أعني بالطبع أن هنالك جانباً من الفيزياء يبحث في هذا الموضوع، وإنما أعني أن حقائق الفيزياء ونظرياتها تفسر أحياناً تفسيراً يجعلها متنافية مع وجود الخالق، وتفسر أحياناً تفسيراً يجعلها مقتضية له. لكن مناقشة هذه القضية تتعدى مجال الحقائق والنظريات الفيزيائية، ويتأثر المناقش لها ـ حتى عندما يكون عالماً فيزيائياً مرموقاً ـ بما في مجتمعه وتاريخ قومه من أفكار ومسلَّمات شائعة. ولذلك يحرص كثير من الفيزيائيين الذي يناقشون هذا الأمر على أنهم لا يتكلمون بوصفهم فيزيائيين خُلَّص؛ لأن ما يقولونه هو مزيج من حقائق الفيزياء ونظرياتها، وما لهم من تأملات فيها واستنتاجات منها.

لذلك فأنا لا أناقش في هذا البحث الحقائق أو النظريات الفيزيائية، وإنما

أناقش الطريقة التي استخدم بها هؤلاء الفيزيائيون هذه الحقائق والنظريات في إثباتهم لما أثبتوه أو إنكارهم لما أنكروه مما له تعلق بقضية وجود الخالق. المناقشة مناقشة عقلية تبدأ بالتسليم للفيزيائيين بما يقررون من حقائق، وما يرجحون من نظريات؛ لترىٰ مدىٰ عقلانية الحجج التي استخدموها في استنتاج ما استنتجوه أو ترجيح ما رجحوه مما هو ذو صلة بموضوعنا هذا.

لقد كان بإمكان الملحد ـ قبل مقدم الفيزياء الحديثة ـ أن يتعلل في إنكاره لوجود خالق للكون بحجتين كانتا تبدوان آنذاك علميتين، لقد كان بإمكانه أن يزعم أولاً: أن المادة في ذاتها أزلية، وأن العارض الحادث إنما هو الأشكال التي تأخذها تكويناتها المختلفة. وأن يزعم ثانياً: أنه إذا كانت تلك المادة الأزلية هي الذرات مثلاً، فقد وجدت الوقت الكافي لتتجمع ـ بمحض المصادفة ـ لتأخذ تلك الأشكال العارضة التي يتكون منها عالمنا هذا بما فيه من حياة وعقل.

لقد كان المعتقد أن في تينك الحجتين إبطالاً لدليلين يعتمد عليهما القائلون بوجود الخالق، أعني (دليل التكوين، ودليل العناية). لم يكن هذا الموقف الإلحادي أمراً تقتضيه فيزياء نيوتن، لكنه كان أمراً لا تمنع القول به فيما يبدو. لكن الفيزياء الحديثة أبطلت تينك الحجتين باكتشافها أن الذرة نفسها تنقسم، وأنه لا شيء يمنع من تحويل المادة إلىٰ طاقة أو تحويل الطاقة إلىٰ مادة، ثم بتبنيها لنظرية (الانفجار العظيم) التي يلزم عنها حدوث هذا الكون المشهود كله بما فيه من زمان ومكان.

سأحاول أن أبين في هذا البحث أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يُسوِّغه حتىٰ في فيزياء نيوتن، ثم أفصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق، رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم.

لماذا هذا البحث؟ ولماذا هذه المناقشات مع أن الملحدين في العالم ـ كما سنذكر بعد ـ قلة قليلة من الناس؟

لأن هؤلاء الملحدين وإن كانوا قلة إلا أنهم قلة مؤثرة، والعبرة في الأفكار ليست بكثرة عدد من يعتنقها ويدافع عنها ولكن بعدد من يتأثر بهم، ولو تأثراً جزئياً.

ولأن كثيراً من المؤمنين ـ ولا سيما في البلاد الغربية ـ يشعرون بأنهم في موقف ضعيف من الناحية الفكرية، وهذا يجعلهم يستخذون أمام هجمات الملحدين ولا يجرؤون على مناقشتهم والدفاع عن معتقدهم إلا القلة القليلة من بعض مفكريهم.

ولأن هذه الموقف الضعيف من جانب المؤمنين بوجود الخالق جعل إيمانهم هذا أمراً ذاتياً معزولاً عن الحياة، الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية والحياة العلمية، فغلب الفكر المادي الإلحادي على هذه الجوانب كلها، وعن طريقها بدأ يبث المواقف الإلحادية خلسة بين المؤمنين في البلاد غير الغربية بما في ذلك البلاد الإسلامية.

ولأنهم يوهمون الناس بأن إلحادهم لازم عن العلم الطبيعي أو أن هذا العلم مناصر له، والناس مفتونون بالعلوم الطبيعية لما رأوا من صدق كثير من دعاواها، ولما رأوا من فوائدها في جميع مرافق حياتهم. فإذا قيل لهم إن الإلحاد لازم عن هذه العلوم الجليلة القدر عندهم كان هذا فتنة لبعضهم، إما بتشكيكهم في إيمانهم، وإما بتكذيبهم لحقائق هذه العلوم، والتصديق بأنها خصم لدينهم.

ولأن كثيراً من أبناء المسلمين يتعرضون للفكر الإلحادي هذا بطريق مباشر أو غير مباشر، في بلادهم أو في بلاد الغرب التي يذهبون إليها دارسين أو مقيمين، وكثيراً ما يحزن ذوي الدين منهم أن يجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على تحديات الملحدين.

وقد وجدت بالتجربة من مقالات قليلة كتبتها باللغتين العربية والإنجليزية أنهم يستفيدون من أمثال هذه المناقشات.

إن الاستعلاء الفكري سمة من سمات الإسلام لله، فمهما رأىٰ المسلم كفراً يتبجح ويتحدىٰ كان عليه أن يتصدىٰ له وينازله، فصاحب الحق يجادل أحياناً ليقمع لا ليقنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد عدَّ الله ـ تعالىٰ ـ أمثال هذه الحجج من أجلِّ النعم التي ينصر الله بها أئمة الدين، ويرفع بها درجاتهم، فقال ـ سبحانه ـ عن حجة أخرىٰ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الفصل الأول

الإلحاد في العصر الحديث

الإلحاد في العصر الحديث

١ـ ظاهرة الإلحاد :

كان الناس في العصور الماضية يعتقدون اعتقاداً جازماً بوجود خالق مدبر للكون، وكانوا يعدُّون هذا من البدائه العقلية، وكان الإلحاد ـ بمعناه الحديث الذي هو إنكار وجود هذا الخالق ـ أمراً شاذاً لا يقول به إلا فرد بعد فرد من الناس.

وظل الأمر كذلك حتىٰ القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً[١]، ثم بدأ الإلحاد يحل محل الإيمان عند كثير من قادة الفكر الأوروبي، وصار بعد مقدم الشيوعية هو (الدين الرسمي) لدُوَلها. ولـمَّا صارت للإلحاد هذه المكانة في الغرب، ولـمَّا كانت الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة في عصرنا؛ فقد انتشر هذا الإلحاد، وانتشرت أكثر منه لوازمه في أرجاء المعمورة انتشاراً لم يعهد له مثيل فيما مضىٰ من الزمان[٢].

وكان من نتائج ذلك:

أن صار الإلحاد ـ من الناحية العلمية والعقلية ـ هو الموقف الطبيعي الذي لا يحتاج إلىٰ دليل ولا برهان، وصار المؤمن هو المطالب بمثل هذا الدليل.

---

(١) أول كتاب يصرح بالإلحاد ظهر في أوروبا في عام ١٧٧٠م، وفي بريطانيا في عام ١٧٨٢م. (Atheism in Britain, p.3).

(٢) هذا مع أن الملحدين ما زالوا ـ من الناحية العددية ـ قلة قليلة حتىٰ في الديار الغربية. ففي استطلاع للرأي العام أجرته صحيفة نيويورك تايمز ـ (٢٧/ ٢/ ١٩٩٣م، ص ٩)، (ثقافة الكفر، ص٤) ـ صرح ٩٦٪ من الأمريكان بأنهم يؤمنون بالله.
وفي استطلاع أحدث أجرته مجلة US News and World Report كانت النسبة قريباً من ذلك. فقد صرح ٩٣٪ بأنهم يؤمنون بالله، وصرح ٥٪ فقط بأنهم ملحدون. (٤ / ٤/ ١٩٩٤م، ص ٤٨). مثل هذه الإحصاءات تُحرج كثيراً من الملحدين الذين يريدون أن يربطوا بين التقدم العلمي والرفاه المادي وبين الإلحاد. فالولايات المتحدة أكثر الدول الغربية تقدماً في الأمرين معاً، وأكثرها ديمقراطية لكنها أكثرها ديناً.

وأن صار الملحد هو الذي يتحدىٰ المؤمن ويتهمه بعدم العلمية، وعدم العقلانية، وبالتقليد، والانسياق وراء العواطف.

وأن صار إظهار الاهتمام بالدين ـ ولا سيما في وسائل الإعلام العامة ـ أمراً مستغرباً بل منكراً. يقول صاحب كتاب (ثقافة الكفر): «إنه ما أن نشرت مجلة نيوزويك مقالاً عن الدين حتىٰ جاءها خطاب ـ نشرته ـ من قارئ يلومها علىٰ إفساح المجال لمثل هذا الهراء»، ثم يعلق علىٰ ذلك قائلاً: «من حيث الإحصاء فإن كاتب الخطاب ينتمي إلىٰ الأقلية . . . وأما سياسياً وثقافياً فإنه ينتمي إلىٰ التيار الأمريكي الغالب؛ لأن أولئك الذين يُصلُّون بانتظام ـ بل أولئك الذين يؤمنون بالله ـ يحرصون علىٰ إبقاء ذلك في السر، بل علىٰ عدِّه سراً يخجل من [إفشائه]. وذلك أنه فيما عدا الالتجاء إلىٰ الله الشعائري [الظاهري] المتوقع من سياسيينا؛ فإن الأمريكي الذي يأخذ دينه مأخذ الجد، ويعدُّه شيئاً مأموراً به لا مجرد خيار؛ يخاطر بأن يُعدَّ من المارقين»[1].

وأن صار الدين هو (الظاهرة الاجتماعية) التي تحتاج إلىٰ تفسير، وأما عدم التدين فهو الأمر الطبيعي الذي لا يستدعي دراسة ولا بحثاً ولا تنقيباً.

وأن صار الإلحاد هو القاعدة ـ المعلنة أو المضمرة ـ التي تقوم عليها فلسفة العلوم، طبيعية كانت أم اجتماعية أم إنسانية، فصار الإلحاد لذلك جزءاً من مفهوم العلم؛ ومن هنا جاءت المقابلة بين ما يسمىٰ بالتفسير العلمي والتفسير الديني. فالتفسير العلمي هو التفسير الذي يفترض أن الكون مكتف بنفسه، لم يخلقه ولا يصرِّف أمره خالق. وأما التفسير الديني فهو الذي يجعل للإرادة الإلهية تدخلاً في حوادث الكون.

وإذا كان العلم قد وُضع ـ بسبب فلسفته الإلحادية ـ في مقابل الدين، فقد وُضع الدين ـ مهما كان نوعه ـ في زمرة الكهانة والسحر وسائر أنواع الشعوذة

(١) ثقافة الكفر، ص ٤.